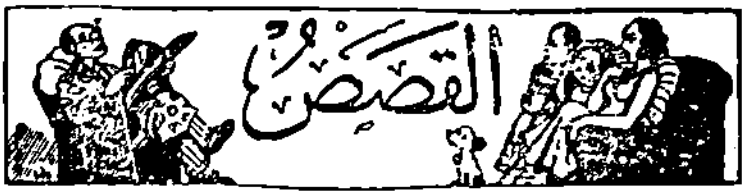

أشباح

للكاتب النرويجي هنريك أبسن

بقلم الأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

تعريف : هذه مسرحية قال عنها النقاد : « إنها عمل أدبي خلق قبل أوانه » فقد أثار ظهورها سنة ١٨٨١ م ، ضجة كبيرة في الأوساط الأدبية في كثير من أنحاء العالم ، وأبت المسارح تمثيلها في ذلك الوقت ، لأن الناس كانوا لا يدركون ما يرمي إليه المؤلف من آراء جريئة . وقد ظلت مسرحيتنا هذه حبيسة اللفات ، سجينة المادات ، حتى إذا كانت النهضة القومية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين جرؤ بعض أصحاب المسارح فنفض ما تراكم عليها من تراب السنين ، فمثلت ونجحت نجاحا تعدى المسرح النرويجي إلى كثير من المسارح العالمية ، فترجمت إلى كثير من اللغات منها الإنجليزية والفرنسية وغيرهما ، ولم يلبث المؤلفون المسرحيون أن حذوا حذوها في مسرحياتهم بل واتخذها كثير من العلماء الباحثين موضوعا لأبحاثهم في الوراثات التي يورثها الآباء أبناءهم . وهذه الوراثات منها الطيب والخبيث . والفكرة الرئيسية في هذه المسرحية أن (الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون) . فالأب في هذه المسرحية خدن للشيطان ، حليف للشر ، عبد للشهوة ، أصيب بالجنون ومات إثر نوبة قلبية متأثراً بما كان يتعاطاه ، وقد ورث عنه ابنه الاستعداد للاصابة بهذا المرض رغم أنه لم يكن يعرف أن له أبا شريداً مصابا بالجنون . .)

ولقد عنى المؤلف بالفكرة أكثر مما عنى بالأشخاص ، فجاءت المسرحية قوية الموضوع ، ضعيفة من ناحية الأبطال ، الذين حملهم كأنهم قطع شطرنج يتحركون بغير روح

المسرحية : ـ مستر انجستراند رجل محب للمال يعمل للحصول عليه من أقصر طريق ، ويريد الوصول إليه بغير كد ولا عناء ، ولا يهمه أن يكون الطريق شريفا أو وضيعا ، فهو لا يحفل بالشرف ، ولا تستهويه الألفاظ الرنانة التي يتشدق بها الآخرون عن الشرف والفضيلة ... الخ

فإذا رفع الستار نراه يتحادث مع ابنته (ريجينا) يحاورها ويراوغها ، ونسمعه يفاوضها في بيع شرفها بالمال لحساب الخمر ، ويطلب منها أن تقدم جسدها طعمة سائغة لمن يدفع أغلى ثمن ، فإن رأى منها الإعراض والتأبي ، ذكرها بما يجب عليها من طاعته واكتساب رضاه ... ولكن الابنة ترفض طلب أبيها في إباء وشمم ، وتأبى أن تستسلم لإغرائه ، فإذا حاول أن يثنيها عن عزمها ثارت في وجهه وسخرته ثم تطرده من المنزل الذي يقيم فيه ، فهي تقيم في منزل ربيبتها مسز (الفنج) وهي امرأة واسعة الثراء اشتهرت بالغنى واليسار

إن (ريجينا) لا تملك قلبها الذي يريد منها أبوها أن تبيعه لدافع الثمن الأكبر ، فقد وهبته من زمن (لإسوالد) ابن مسز (الفنج) صاحبة البيت الذي تربت فيه ، فقد التقت به كثيراً كلما عاد إلى بيت والدته من غربته ، فأحبته (وريجينا) ووهبته قلبها .

و (إسوالد) هذا وحيد أمه ، ولكنها قد أبعدته منذ صغره عن البيت الذي تعيش فيه مع أبيه ، فأثار هذا زوبعة من اللغط والحديث بين أهل القرية ، وخاض أهلها في كثير من التفسيرات المختلفة عن عدم حبها لابنها الوحيد ، وقسوة قلبها وجمود عاطفتها

وأنه لولا ذلك لما أرسلت ابنها الوحيد إلى إيطاليا ليعيش هناك بعيدا عنها وعن أبيه

والحق أن كل هذه التفسيرات لم يكن شيء منها صحيحا ، فلم تكن مسز (الفنج) قاسية القلب غريبة الأطوار ، بل إنها كانت على عكس ذلك رقيقة القلب جياشة العواطف ، حسنة التصرف ، ولم يكن إبعادها لابنها ليتعلم فن الرسم كما كانت تقول هي لمن يسألها ، ولا كرها له ولا قسوة عليه كما يقول الناس ، وإنما الذي أوحى إليها هذا العمل ، هو حبها لابنها وعطفها عليه ، فقد أشفقت عليه أن يعيش مع أب شرير عربيد كالمستر (الفنج) الذي لا يفيق من سكره ؛ وإن أفاق فانما ليبحث عن امرأة ساقطة يقضي الليل بين أحضانها ، لقد أشفقت على ابنها ولم تشأ أن ينكب

في أبيه كما نكبت هي ، فعملت على إبعاده عن الجو المشبع برائحة الخمر والدعارة

فكم قاست من شرور زوجها وآثامه وهي صابرة محتملة ، فلم ترد أن يتحمل ابنها شيئا مما لاقته فعملت على إبعاده ، ونجحت في إنقاذه من شرور أبيه وتربيته بعيداً عنه؛ ولكنها لم تستطع أن تنقذه من الرذائل والعادات السيئة التي ورثها عن أبيه ، فقد انتقلت الشرور والآثام من الأب إلى الابن في الدم كأنها أشباح سوداء في ليلة مظلمة . وكان من أثر هذه الوراثة أن نشأ (إسوالد) ممتلئ الجسم في عقله استعداد للاعتلال عند الصدمة الأولى . ولقد نصحه طبيبه الإيطالي بأن يريح عقله وجسمه فلا يرهقها بمجهود عنيف، وأنذره إن لم يتبع نصحه فسيلقى حتفه عن هذا الطريق

فلما مات الأب الشريد ، أرسلت مسز (الفنج) إلى إيطاليا تستدعي ابنها ليعيش في كنفها ، فلما حضر منحته عطفها وحنانها اللذين حرمته منهما قسوة الأيام وفساد أخلاق الأب

والتقى (إسوالد) و (ريجينا) فخفق قلباهما اللذان أصابهما كيوبيد بسهمه ، وقد مهد لهذا الحب تلاقيهما في المرات السابقة التي كان يحضر فيها الشاب لزيارة أمه ، على رغم قصرها، فلما عاد هذه المرة التي سيبقى فيها طويلا، أطلقا لنفسيهما العنان، وأصبح كل منهما لا يستطيع فراق الآخر، وكانت الشواهد تدل على أنهما في طريقهما الطبيعي نحو الاكتمال والسعادة المحققة التي ينشدها كل حبيبين

فلما رأى مستر (انجستراند) والد (ريجينا) هذه البوادر عز عليه أن يفقد ابنته التي يريد أن يستخدمها في مآربه الدنيئة فعاد يحوم حولها ، يذرها حينا ويرغبها حينا آخر . فلما أبت أن تكون فريسة شهية لرواد منزله ، لجأ إلى القس (ماندوز) يشكو له ابنته العاقة التي تأبى أن تعيش معه ، وتؤثر أن تعيش مع سيدة قاسية غليظة القلب كالمسز (الفنج) التي سبقت أن أبعدت ابنها ليعيش بعيداً عنها محروما من عطف أبيه وحنانه إنه لا يأمن على ابنته في هذا المنزل وخصوصا بعد عودة (إسوالد) الشاب . وصدق القس كلامه وخدع بمعسول قوله لأنه كان ينظر إلى مسز (الفنج) نظرته إلى امرأة فظة قاسية ، ولأنه لم يكن يعلم لماذا أبعدت ابنها عن أبيه ، فذهب إليها يأمرها أن ترد البنت إلى كنف أبيها الحنون

وهنا تضطر مسز (الفنج) أن تعترف للقس بالسبب الذي من أجله أبعدت ابنها وما كان من أمر الأب الشرير الساقط ، وتفهمه أن زوجها قد خانها مع خادمة لها . فتقول له :

ـ إن (ريجينا) ليست ابنة مستر (انجستراند) فيسألها القس متعجبا وكيف ذلك ؟ فتقول له :

ـ لقد فاجأت زوجي والخادم بين أحضانه وهما في وضع مشين والخادم تقول له : أوه ... أوه ... مستر الفنج ... اتركني.. أرجوك أن تتركني) فاضطررت إلى طرد الخادم الفاسدة الخلق بعد أن منحتها مالا تعيش منه

وقد تزوج مستر (انجستراند) من تلك الخادم الساقطة من أجل مالها التي أعطيته لها ، وبعد أشهر خمسة من زواجهما أنجبت له (ريجينا)

فدمدم القس قائلا : (إنها خادم فاسدة حقا)

ولكن مسز (ألفنج) لا تلقي بالتبعة كلها على كاهل المرأة الساقطة دون أن تحمل شريكها الذي بذر معها بذور الخطيئة ثم تخلى عنها وقت العقاب ، بعض الذنب ، فتجيب القس قائلة :

(يخيل إلي ياسيدي أحيانا أننا نعيش في عالم كله رياء، وأننا جميعا ساقطون وأن أخطاء الأموات حية في دمائنا، قد أورثوها إيانا ، وإني أصارحك أني أرى هذا العالم يحوي من الخطايا والشرور أكثر مما يحوي من حصى الأرض ورمل الصحراء ، وإننا جميعا نهرب من الضوء ونختفي الظهور في النور لنعيش في الظلام الذي يحجب خطايانا عن عيون الغير)

فقال لها القس وقد ظهر الغضب على وجهه حتى ارتعشت لحيته : (كيف تقولين إننا جميعا ساقطون وإننا نهرب من الضوء ؟)

فقالت له : (ألم تزوجني زواجا فاسدا باطلا ؟) فقال لها

(كيف ذلك ، إن زواجك قد تم وفق القانون والواجب ، وهما عمودان شامخان يباركان حياة الزوجية الماضية) فقالت له

(إذا كان القانون والواجب ، يرغمان الإنسان على أن يوقف حياته الصالحة على احتمال آثام رجل شرير فاسد لا يرجى منه خير ولا يؤمل فيه صلاح .. فإنهما عمودان شامخان يرمزان إلى مفاسد العالم وآثامه)

ولم تكد مسز الفنج تتم حديثها حتى يدخل مستر (انجستراند) ليسأل القس عما تم ويستشهد به في طلب ابنته ، ولكن القس

يثور عليه فى وجهه إذ كيف يتزوج امرأة ساقطة نظير مالها

فيجيبه مستر (انجستراند) بهدوء تام قائلا : « أليست الشرائع السماوية تأمرنا ، أن نعد العون لمن نزل قدمه ؟ (فيؤمن القس على قوله) فيواصل (انجستراند) قائلا فأنا قد سمعت أمر السماء وانتشلت والدة (ريجينا) من الوحل الذى ألقاها فيه مستر (الفنج)

كان ذلك عندما اقتحمت يوما أحد المراقص الأرستقراطية هناك فى المدينة حيث تراق الخمر كالماء ؛ وتبعثر الأموال ذات اليمين وذات الشمال بغير حساب ، والفقراء هنا فى القرية يقتلهم الجوع ويفرى أجسامهم البرد ، وهناك النساء مرتميات كأنهن الوسائد . وقد اقتحمت ذلك المرقص محاولا زجر أولئك القوم عن آثامهم التى يرتكبونها ، ولكنهم لم يسمعوا الى بل ألقوا بى إلى الخارج فكسرت إحدى ساقى ، وفى محنتى تقدمت إلى والدة (ريجينا) وساعدتنى على الوصول إلى دارى ، ثم اعترفت لى أن رجلا سلبها عفافها ، فقلت لها لقد ارتكبت جرما وأصبحت امرأة ساقطة تحملين الإثم والفجور ، ولكن ها أنا ذا أقف بجانبك لأنقذك مما أنت فيه حتى لا تضيق إلى أبيك آثاما أخرى ، وقد أنقذت المسكينة حتى لا تكون خطيئتها مضغة الأفواه .

وخدع القس بهذا الكلام الزائف ، فلبث برهة صامتا لا يتكلم . وهو ينظر إلى مسز (الفنج) كأنه يؤنبها على ما قالت فى حق (انجستراند) وفى أثناء ذلك خرج (انجستراند) من الدار ليعود إلى المنزل الذى يديره

وهم القس بالكلام مع مسز (الفنج) ولكنها سمعا صوت (ريجينا) من الداخل تصيح :

أوه ... أوه ... مستر إسوالد ... اتركنى ، أرجوك أن تتركنى ..)

ويعقب هذا أصوات اصطدام أشياء ، فيلتفت القس إلى مسز (الفنج) ويسألها عن مصدر هذا ، فتجيبه وقد أدركت كل شئ (إنها أشباح مثقلة بالآثام والشرور ورثها الابن عن أبيه)..

* * *

ثم يخرج القس وتستدعى مسز (الفنج) إليها إسوالد وتسأله عما حدث بينه وبين (ريجينا) فيقسم لها أنه لم يحاول الإساءة إليها ولكنه يحبها ، ويثق أنها تحبه حبا صادقا ، فيقول لها : إن حبها هو الذى صانني عن كل عبث وحال بينى وبين ما كنت أهم بارتكابه فى غربتى . ولقد هممت كثيرا أن أفعل ما يفعله الشباب ، ولكن كان مجرد تفكيرى فى أن هذه الفتاة البريئة الطاهرة الذيل تنتظر أوبتى وأنها تعدل ذراعها لأناقاها ، كان هذا وحده يبعدنى عن مزالق الشر ويدفعنى إلى الثقة بنفسى فأبتعد عن كل ما يشين

وهنا يظهر الارتباك على مسز الفنج وتستغرق فى سهوم طويل ، لا يخرجها منه إلا صوت ابنها (إسوالد) يسألها أن تبارك حبها ، فتلتفت إليه وهى لا تزال شاردة ، وتقول له فى صوت شارد حزين :

إنها أختك يابنى . فيرد عليها فى صوت مزعج

هذا محال ، كيف ذلك يربك ؟ اصدقينى أهى أختى حقا ؟ هذا محال ...

فتهدئ والدته من روعه ، ثم تخبره بقصة (جوانا) الخادمة التى اعتدى أبوه عليها فأنجبت (ريجينا) ولكن بعد زواجها من انجستراند بمدة قصيرة جدا ... وهنا تنزل بالشاب المسكين الصدمة التى حذره الطبيب إياها

وعندما تعرف (ريجينا) أن (إسوالد) أخوها وأن زواجها منه مستحيل تضيق بها الحياة وتصمم على الرحيل ..

فتسألها مسز (الفنج) (إلى أين ياريجينا) فتقول لها

إلى حيث أراد أبى أن أهب جسمى لدافع الثمن الأكبر .

فتقول لها

ولكنك يا ريجينا تلقين بنفسك فى الهاوية

ليكن هذا مادام مستر إسوالد سر أبيه ، فلأكن أنا الأخرى سر أمى . ثم تخرج هائمة على وجهها

وتظهر دلائل الاختلال على إسوالد ، فيستولى الرعب على الأم وتلقى بنفسها تحت قدميه وتصيح ؛

إسوالد ابنى ارحم أمك التى منحتك الحياة والحب والحنان ولكنها لا تسمع إلا صوت سقوط إسوالد على الأرض ميتا ، فقد انفجر شريان فى فمه فخر صريعا

أسيوط عبد الموجود عبد الحافظ